

الاجتماع

وعلم الشعوب وآدابها وحكمها
في « الفولكلور » العالمي

للاستاذ محمد لطفي حجة المحامي

- ١ -

كلمة فولكلور Folklore معناها علم الشعب وهو مجموعة الأساطير والأمثال والشعر والنوادر والحكم المحكية والمحفوظة عن ظهر قلب والرواية بين الأفراد والجماعات والشهيد بها في البرادي والخواصر . ولهذا العلم شأن كبير في علم الاجتماع لأن فيه الدلالة على طرق التفكير في الحياة ووسائل الفهم التي ترشد العامة وهي الأكثرية الغالبة وتبهر أذهان الخاصة في علاقتهم بالطبقات النازلة من المجرع . وأول من عني بهذا العلم عناية خاصة الأستاذ ماكس مول الأستاذ بجامعة أكسفورد واريكو نيري ونيشوفورد وبرايس من علماء الاجتماع الاوربيين . وفي الشرق ألف الميداني الشهير كتابه في الأمثال عند العرب وذكر أسباب شيوعها وحكمة الاستشهاد بها وهو يعد من أهمات كتب الأدب العربي . وفي العصر الحاضر فإن جنب التلامنكي وفي عصر المرحوم محمود عمر الباجوري أحد علماء الأزهر ودار العلوم وأحد أعضاء الوفد الذي بعث به في سنة ١٨٩٣ الى مؤتمر المستشرقين في استوكهولم عاصمة سكاتندنافيا (التي كانت مكونة من السويد والنرويج ، متحدة تحت إمرة ملك واحد) . وقد ألف هذا العالم المصري كتاباً في الأمثال . وآخر في الأفاني وانواعها . وتأنقاً في النوادر وتقصص الشعبي . وأثبت ان قصة لوهنجرين (اوبرا اناية من وصح وتلحين ريشارد فاغنر) هي نفسها قصة عريد السدب التي تروى للاطفال في القرى المصرية

- ٢ -

وقد اتخذ الفولكلور العالمي ، في أدب الالة العربية القديم صورة الفعامة وهي في اصطلاح علماء الادب العربي قطعة من الشعر يضاف اليه نظم في كثير من الاحوال ، مبنية على قصة قصيرة خيالية في معناها وحوادثها ترمي الى تعزير وادب لى لتتخرج ردة أو

حكمة للتدبر والاعتبار على الغالب، ولكل مقامة أو مجموعة من المقامات بطل واحد مفرد بصفات معينة كعيسى بن هشام أو أبي زيد السروجي . ويدور على هذه الشخصية أهم ما في القصة من ذكاء وحذق ولباقة وكياسة وسعة إدراك وحيلة ، ومفاجآت ومغامرات وغرائب . وليس البطل في المقامة هو الذي يروي الوقعات أو يسرد الحوادث كما هي الحال في قصة سندباد البحري بل له رواية يسجل أحواله وحوادثه كالحادث بن همام في مقامات الحريري وعيسى بن هشام في مقامات بديع الزمان الهمداني التي بطلها أبو الفتح السكندري الذي يقول :

اسكندرية داري لو قرّ فيها قراري

لكن بالشام لبني وبال عراق شمالي

أي أنه جوّاب آفاق وساحب عاطر ، سريع في التنقل وكأنه تلبأ بصر السفر بالطائرات فهو عيسى في الشام ويصح في العراق ولا يفر له قرار في وطنه الاسكندرية وأسلوب المقامات أحد فنون الأدب العربي

وحجبتنا في أنها كانت يجمع الأدب الشعبي أن أصل اللفظ اللغوي «مقامة» منناه مجلس أو نادي يقول فيه العلماء والادباء والروايات حكمهم وأدبهم ووعظهم ويفضرون أمثالهم للحاضرين والسامعين . وذكرها الجاحظ في كتاب البخله ص ٢١١ فقال « يفوضون في الحديث ويدكرون من الشعر [الشاهد والنزل] ومن الخبر الأيام [والمقامات] »

وقد سرى فن المقامة المنطوي على أدب الشعب وأمثاله وحكمته من العرب إلى سائر الشعوب السامية فقدم الغرس والبرانيون والسريان فوضعوا مقامات باللغة العربية بدأً من تعلموها وأتقنوها . والحذر ثم الحذر من الظن بأن القصص التي نلقى على العامة كقصة سيف ابن ذي بزن أو قصة عنتر أو فاطمة ذات اللمعة هي من نوع الفولكلور أو الأدب الشعبي . فإن هذا نوعاً آخر يقصد به إلى تنقيف الجماهير وتبليغها . أما الفولكلور وفي مقدمته المقامة لا يقصد به إلا تعليم العامة الحكمة الإنسانية على وجه الاختصار والابحار ، بأساليب رائعة لامية تأخذ بالآليات

نعم إن المقامات العربية كقمامات بديع الزمان من أهل القرن الرابع الهجري ، قرن النثر العربي ، ومقامات الحريري من أهل القرن السادس الهجري ، كتبت جميعها باللغة العربية الفصحى ، لأنها كانت لغة الكتابة والحفظ والحديث والأمثال . وكذلك النوحوم البيهقي (من أهل القرن الرابع عشر الهجري) لما وضع كتاب عيسى بن هشام عن حياة القاهرة في القرن التاسع عشر والعشرين السبعيني اتبع اللغة العربية بأسلوب مصنوع (مصطنع متكلف) مشجع غاية في الثائق والتزييق يجمع من شوارب اللغة وفصيحتها وعيون مفردها وتراكيبها

وأمناتها ونوادرها مقدراً وافرأ . ولكن هذا العمل كان تقليداً للحريزي، وبديع الزمان وقد كان أكثر تحمداً من سابقه . ولكن أول من كتب المقامات وهو أبو بكر بن دريد (من أهل القرنين الثالث والرابع الهجري) لم يتبع الأسلوب النصبغ بل كتبها بلغة مخالفة . والدليل على ذلك ما جاء في كتاب زهر الآداب « ان ابن دريد جاء بأربعين قصة وذكر انه استنبطها من يابيع صدره وأتجم من معادن فكره وأبداها للأبصار وأهداها الى الافكار في مراض حوشية وألفاظ عنجبية فجاء أكثرها تدبوعن قبوله الطباغ ولا ترفع له حجب الاسماع وتوسع فيها اذ صرف ألفاظها ومعانيها في وجود مختلفة وضروب منصرفة » انتهى كلام زهر الآداب ويستنتج منه أن ابن دريد ألف هذه الأربعين قصة وكتبها بلغة الشعب وأمناتها فنشرت منها أسماع أهل الادب ولكنه بعد بمحق مسجلاً أولاً للأدب الشعبي

ويتكلم مؤلف زهر الآداب عن مقامات ابن دريد أو قصصه الشعبية كلام من قرأها واطلع عليها ولم ترائق ذوقه . وقد فقدت هذه المقامات ولو وجدت لسكانت جزءاً مهماً من الادب العربي القديم وتحفة ومارقة تاريخية ولكن بديع الزمان تنه ألف اربعائة مقامة تقدم منها خمسون وثلاثمائة مقامة ولم يبق منها الا خمسون

ولكن أديباً معاصراً وهو الاستاذ العالم الفاضل خليل مردم بك أحد اعلام الادب الشامي بدمشق انتهى بعد بحث طويل واستقراء الى العثور في أمالي أبي علي القالي - وهو تلميذ ابن دريد وخليفته في فنون الادب - على إحدى عشرة قصة مبتكرة في الأمالي رواها صاحبها عن استاذه ابن دريد وهي أكثر من ربع المقامات التي ألفها فيكون حظ ابن دريد أسعد من حظ بديع الزمان لان الذي بقي من مقاماته منها فقط . واليك عنوانات هذه القصص التي تدل بمجرد الاطلاع عليها أنها من صميم علم الشعب (فولكلور)

١- حديث النسوة اللاتي أئتمرن على بنت قيل من أقبال حمير بالزواج ووصفن لها بحاسن الزوج (ج ١ من أمالي القالي ص ٨٥)

٢- حديث زبراء الكامية تندو بني رثام من قضاة بين الشجر وحفر موت ج ١ ص ١٢٦

٣- حديث خنافر الحميري مع رأيه شصار (الرقي معناه الروح الجني الذي تألف رجلاً ويظلمه على العيت) ج ١ ص ١٣٣

٤- قصة مصاد بن مدعور وخروجه في طلب ذود له وما أخبره به الجوارى الطوارق بالحصى ج ١ ص ١٤٣

والجوارى طوارق بالحصى هن من الجن اللواتي تظهر للنشر وتقبسهم بالمحادثات وتنجيهم

بطرق الخصى مثل الاسطورة التي سجلها شكسبير في مأساة ماكبث الشهيرة . وخلصتها ان ثلاث عجائز من الجن ظهرن له في الغابة وتنبأن له بعد حرق البخور بأنه يقتل ابن عمه الملك شكبان ويصل الى عرش ايقوسية . فكان ذلك باعثاً له على قتل ابن عمه
 ٥ - حديث غسان بن جهم مع امة عمه ام عقبة وكيف تراءى لها في المنام بعد وفاته
 ذيل الامالي ص ٢٠٥

وقد ذكرنا بعض هذه القامات أو القصص التي ألفها ابن دريد ولا سيما التي فيها اخبار النساء والكهانة والاخبار عن الغيب والاحلام والرؤى وشخصيات الجان لان علم الفولكلور يدور على هذه المسائل . ولا نسى ان اهل الشام يطلقون على علم الفولكلور اسم « دفتر السموان » وفي مصر يسمونه « علم الركة »

وبجمل القول في هذا الباب ان علم الفولكلور قديم عند العرب يرجع الى القرنين الثاني والثالث للهجرة . هذا اذا لم رد ان تعود الى الادب الجاهلي الذي كان حافلاً حاشداً بهذا النوع من الامثال والحكم والمواعظ . وعلى الرغم من رسالة الاسلام التي قضت على الكهانة والاساطير واخبار الجن والتنجيم والرحم بالغيب فان هذا الفن (فولكلور) ظهر في الاسلام مدوناً من القرن الثاني

- ٣ -

وفي الوقت الحاضر أخذ علم الفولكلور في الادب الأوربي مكانة علياً لأنه يساعد الباحثين على الوصول الى ما يتطلبونه من المعلومات من يتابعها الاصلية فيما يتعلق بمظاهر الحياة البدائية التي يجامها هؤلاء الناس الذين يتصدون لدرس عاداتهم وما احتفظوا به من تقاليدهم القديمة وما هم عليه من الأوضاع الاجتماعية والفردية فيمترون على كثير من المواد التي يعتمدها العلم ويتألفها مع غيرها من أوضاع اجتماعية جرت عليها الناس في ابلاد أخرى من بلاد العالم مما يدخل في اختصاص علوم كثيرة منها علم طبائع الشعوب (انثولوجيا) وعلم الاجتماع وعلم العقائد والتأديت

ومن أهم آثار الفولكلور العلم القائم بذاته بين العلوم أنه عمد الى تحليل مؤلفات الادب العربي سواء أمكنه كانت أم عظيمة أم محكمة ومروية وهي الحكايات والاحاديث الطويلة (حكايات اولاد بل واولاد اموي) والامثال والنكات والامثال العامة التي لا يمكن التور عنها في تأليفات كثيرة ولكن روايتها وتدونها بين الناس بحلالها قريبة من النيات في شكلها مما يمكن من تسميتها بمؤلفات أدبية . فأنسى مؤلفات الادب العربي وأشهرها

كلا لياذة والاولدية وما سى ما كبت وفاوست مدينة بأصلها الى انطرافات العامية والاساطير وكثيراً ما يكون فيها كتبه الكتاب في القرون الوسطى ولا سيما المؤرخون والجغرافيون منهم كلمات وتماير خاصة بالصناعة والهندسة والنياب والمطاعم والتجارة والملاحة لا يمكن العثور على معانيها في أكل القواميس العربية وأكبرها ولكن كثيراً ما تكون هذه الكلمات باقية في لغة من اللغات العامية التي كانت السبب في حفظها وعدم ضياعها (أنظر درس المتصرفين اللغة العامية للشرق أدومون صومعه ترجمة الداغستاني سنة ١٩٣٣) أما فيما يتعلق بالأدب العربي فإنه مستمد من حياة الاعراب اليومية قبل الاسلام . ومن المعلوم ان الشعر والمقامات والأخبار التي ترجع بأصولها الى حكايات كانت تروىها وتغنى بها وترددها وتنشد ما تارة من القصص والرواة والرواظ والناصحين والمرزقة ضروباً في مجاهل الارض على عدد من أفراد الشعب يلتفون حولهم في زاوية من زوايا الطرق أو تحت خيمة أو في بناء قصر أو في مجلس عشاء أو في حلقة نقراء

فكيف يمكن بعد ذلك أن يدرس الأدب العلي أو علم الاجتماع أو أخلاق الشعوب أو أخلاق المجرمين أو عادات المتشردين أو ضحايا المخدرات أو طبائع العمال والصناع والتلاحين والزراع دراسة عميقة إذا أهملت دراسة هذه الآداب والتنون والتحف العامية

وكثيراً ما يكون في الادب العامي ذي الطابع المحلي الخاص من العبقريات ما عسى أن لا يظهر في الادب الصحيح العام الذي قل أن تبرز فيه الطبيعة المحلية الخاصة . (أنظر كتاب ويلور القاضي الانجليزي عن براعة النكتة والتفحشة في اللغة العربية العامية بمصر ١٩٠٣ في فصول «خيال الظل» و«قره جوز» يظهر الفرق جلياً واضحاً بين الامزجة المصرية والعربية والتركية فقد نقل المصريون والسوريون هذه الفصول عن الترك واليونان (بعقل قره جوز اليوناني فاصوليا ديس) وفي فرنسا اللب اليمى *grand guignol* ورواياته وقصصه وأشماره وأغانيه

وفي انجلترا *Punch and Judy show* وفي كل من البلاد الخمسة أو الستة التي ذكرناها حلت مظاهر الطبيعة القومية المحلية محل مظاهر الطبيعة التي تتناول عنها في الاغاني والانشيد التي تتخلل هذه الفصول مثلاً قامت العاطفة العربية الحزينة الوفاء مقام العاطفة التركية المغناة

وفي فرنسا حلت عاطفة المذنب والمزاج والمجون محل السكنة الانجلوسكونية الباردة القارصة التي كأنها لدغة هواء أو أثر من طمسة

البحث سنة